

٣ — بلاط الشهداء

بعد ألف ومائتي عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وأخفق مشروع الخلافة في فتح الغرب من تلك الناحية ولقى الاسلام هزيمته الحاسمة في المشرق أمام سور بيزنطية، وقامت الدولة الشرقية في وجه الاسلام حصنا منيعا يحمي النصرانية من غزوه وسلطانه. ولكن جيوش الاسلام جازت الى الغرب من طريق اسبانيا، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقي أمم أوروبا النصرانية، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء لاستطاع موسى ابن نصير أن ينفذ مشروعه في اختراق أوروبا من المشرق الى المغرب، والوصول الى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ولكن من المرجح أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية يومئذ، وان يسود الاسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب، ولكن الفكرة قبرت في مهدها لتوجس الخلافة وترددها.

على ان الفتوح التي قام بها ولاية الأندلس بعد ذلك في جنوب فرنسا كانت طورا آخر من أطوار ذلك الصراع بين الاسلام والنصرانية، فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ، وكانت تقوم في الغرب بحماية النصرانية على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق، بل كانت مهمتها في هذه الحماية اشق وأصعب، اذ بينما كان الاسلام يهدد النصرانية من الجنوب كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق؛ وكانت الغزوات الاسلامية تقف في المبدأ عند سبتانيا ومدنها؛ ولكنها امتدت منذ ولاية السمح الى اكويتين وضاف الجارون؛ ثم امتدت الى شمال الرون وولاية بوجونيا وشملت نصف فرنسا الجنوبي كله، وبهذا بدا الخطر الاسلامي على مصير الفرنج والنصرانية قويا ساطعا؛ وبدت طوابع ذلك الصراع الحاسم الذي يجب ان يتأهب لخوضه الفرنج والنصرانية كلها.

كانت المعركة في سهول فرنسا اذن بين الاسلام والنصرانية. بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين في اجتناء تراثها؛ كانت بين العرب الذين اجتاحتهم املالك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب؛ وبين الفرنج الذين حلوا في ألمانيا وغاليس. والفرنج هم شعبة من أولئك البربر الذين غزوا رومة

وتقاسموا تراثها من واندال وقوط وآلان وشوايين. فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج في سهول فرنسا أكثر من نزاع محلي على غزو مدينة أو ولاية بعينها: كان هذا النزاع في الواقع أبعد ما يكون مدى واثراً. اذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع؛ الذي فاز العرب منه با كبر غم ثم أرادوا أن ينتزعوا مابقى منه بايدي منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال

وكانت هذه السهول الشمالية التي قدر لها ان تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية تضم مجتمعا متنافرا لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة. ذلك ان القبائل الجرمانية التي عبرت الرين وقضت على سلطان رومة في الاراضي المفتوحة كانت مزيجا مضطربا من الغزاة الضمأى الى تراث رومه من الثروة والنعماء. وكان القوط قد اجتاحتها شمال ايطاليا منذ القرن الخامس وحلوا في جنوب غاليس وأسبانيا؛ ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا وانتزعوا نصفها الشمالي من يد حاكمه الروماني المستقل بامره، وانتزعوا نصفها الجنوبي من القوط وحلت في غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد. وكان الغزاة في كل مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها، ويتقسمون السلطة في نوع من الاقطاع، فلا يمضي وقت طويل حتى تقوم في القطر المفتوح عدة امارات محلية. ولم يعن الغزاة باقامة مجتمع متماسك ذي نظم سياسية واجتماعية ثابتة ولم يعنوا بالاخص ان يندمجوا برعاياهم الجدد، فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغالين الذين لبثوا قرونا يخضعون لسلطان رومة ما تزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها. ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة وتكون وحدها مجتمعا منعزلا لبثت تسوده الخشونة والبداءة احقابا قبل ان يتأثر بمدينة رومه وتراثها الفكري والاجتماعي. وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر كلوفيس اكبر عامل في تطور هذه القبائل، وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية. ثم كان استقرارها بعد حين في الارض المفتوحة؛ وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المفامرة والتجول وشظف العيش، وحرصها على حياة الدعة والرخاء، عوامل قوية في انحلال عصبيتها الحيوية وفقر شغفها بالغزو، واذا كاد رغبتها في الاستعمار والبقاء. وهكذا كانت القبائل الجرمانية التي عبرت الرين تحت لواء الفرنج، واستقرت في غاليا قد تطورت في أوائل القرن الثامن الى مجتمع مستقر متماسك نوعا. ولم تكن غاليس قد استحال عندئذ الى فرنسا، ولكن جذور فرنسا المستقبلية كانت قد وضعت وهبئت

وكما يشتهر المصريون في الوقت الحاضر بحبهم الشديد للجناس اللفظي، الذي تفيض به الاغانى والاشعار الدارجة، فإن أجدادهم المصريين القدماء هم أصل هذا التراث الفنى البديع، الذى يلد للقارىء ان يطالعه، وينعم بفكاهاته .
خدمثلا الاغنية المصرية الدارجة :

يادى الجمال والدلال والحب ونهاره
والشعر فوق الجبين كالليل ونهاره
والدمع فاض م الجفون كالبحر وانهاره
قلبي أسير فى هواك ويحمل انهاره ؟

والكلمات الاخيرة فى كل الايات متشابهة النطق لكنها تؤدى معانى مختلفة تمام الاختلاف .

مثل هذا الجناس كثير فى الشعر المصرى ، وجميل ، لكنه مستحيل الترجمة لأن اللعب فيه يدور على الالفاظ فى علاقاتها بالمعنى، فاذا ماتغير اللفظ بترجمته فقد الجناس بطبيعة الحال، ومع ذلك فسأحاول أن أنقل هنا بضعة شطرات من هذا الشعر الذى يحتوى الجناس وأنا أعربه عن المصرية بتصرف كبير لأوفق فيه الفاظ الجناس، وأقربها للفهم لا أكثر ولا أقل هى قصيدة طويلة فى وصف عربة الحرب قال فيها واصفها :

« عرفت رأسها كل البلاد، وخر لها القواد »

ورأس العربة أى مقدمتها، وإذا دخلت فى ركاب الملك كل البلاد فقد عرفتها ، ولأنها مصنوعة على شكل رأس كبش رمزاً لآمون إله هذا العصر فان القواد جميعهم خروا سجدا لهذا الرأس . ثم يقول :

« مقابض عربتك عنات وعشتر »

يريد بذلك من جهة مقابض العربة، التى يمسكها الملك وهو يحارب فيها، من الجهة الأخرى أن القابضين على زمام العربة هما إلهما الحرب فى العربة

ولا يستطيع القارىء مطلقاً ان يتذوق جمال هذا الجناس الا وهو يقرأ النص المصرى القديم الذى يدل على مبلغ ما وصل اليه المصريون من الافتنان فى الشعر والصنعة الشعرية، ومبلغ حبهم للنسكة والتورية منذ أربعين قرناً مضت ، ناطحتهم فيها شدائد توهن أصلب الاعواد، ومع ذلك لم تذهب بروحهم الكبيرة، ونفسهم المرححة، مدى هذه القرون الطويلة ؟

الاسباب والعوامل لنشوء الامة الفرنسية . بيد ان هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك كان وقت ان نفذ العرب الى فرنسا فريسة الانحلال والتفكك، وكان الخلاف يمزقه كما بينا، وكانت أكويتين وباقي فرنسا الجنوبية في يد جماعة من الامراء والرعماء المحليين الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما فى ايديهم من الاقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما وراء الرين من جهة أخرى تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات، ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ولارغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملاً قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها (١) هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن أعنى حينما نفذ تيار الفتح الاسلامى من اسبانيا الى جنوب فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبي العربى الى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢ م) مائة عام فقط، ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن قد اقتتحوا جميع الامم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً، واكتسحوا العالم القديم فى وابل مدهش من الظفر الباهر، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام الى أقاصى المغرب واسبانيا، وعبروا البرنيه الى أواسط فرنسا . هذا بينما انفتحت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها .

« يتبع »

« الأدب المصرى القديم - بقية المنشور على صفحة ١٨ »

وربهم هو ملك، لكن لكل من الجملتين معناها الخاص على رغم تشابه الغرض . ثم انظر كيف يصف واقعة فى موضع آخر :

« أولئك الذين يدخلون الى هذا القبر

أولئك الذين يرون مافيه »

هاتان الجملتان تبدوان للقارىء السطحي تكراراً، لكن القارىء الدقيق الاحساس يستطيع ان يتبين فيهما فرقاً اراده الشاعر المصرى القديم، هو يريد ان يأخذ يد الداخل الى القبر فيضعها على مافى القبر من نقوش وتحف، أكثر مما فيه من شيء آخر . أليس فى هذا منتهى دقة الحس ونعومة التصوير ؟

١٠ . راجع Creasy: Decisive Battles الفصل السابع فيه استعراض حسن لآحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر وعرض شائق لحوادث موقعة تور . راجع أيضاً Zeller: Hist de L'Allemagne, Ch. VII